سرد وقائع الحياة اليومية
مقاربة أنثروبولوجية

د. عز الدين الخطابي

1 الخطاب السردي وسؤال التأويل

يندرج سرد وقائع الحياة اليومية ضمن منظور تأريخي وبيوغرافي، إذ يتعلق الأمر بالتقرب أكثر من المعيش اليومي للأشخاص والاستماع إلى شهاداتهم حول ما جرى من أحداث.

وقد بدأ الاهتمام بسرد وقائع الحياة كمسعى مهم في الأبحاث الاجتماعية في عشرينيات القرن الماضي بالولايات المتحدة الأمريكية، وتحديداً في العمل الرائد لطوماس وزنانيكي حول المهاجرين البولونيين إلى أمريكا وإلى بلدان أروبية غربية، وعنوانه: "*The prolish peasant in Europe and America*" (Thomas & znaniecki, 1974-). ويتعلق الأمر في هذا العمل، بتحليل مضمون 764 رسالة بعثها مهاجرون بولونيون إلى ذويهم). وسيطور هذا الاهتمام بشكل كبير في الخمسينيات بأوروبا، حيث سيعتمد الباحثون في العلوم الاجتماعية على جمع شهادات "الشعب الصامت" للإحاطة بالمعيش اليومي في مختلف أبعاده وتجلياته التاريخية والاجتماعية والفنية . . . الخ.

وفي هذا الإطار، سيواجه المهتم بسرد وقائع الحياة اليومية بمجموعة من الأسئلة يمكن تلخيصها كما يلي: هل يتعين أن يشمل سرد هذه الوقائع تفاصيل وجود المعني بالأمر، أم جانباً معيناً من هذا الوجود، علماً بأن معيش كل واحد منا يخضع "لمنطقه" الداخلي الذي تتحكم فيه عوامل عدة (فسيولوجية، نفسية، اجتماعية، ثقافية . . . الخ)؟ هل تتوفر للسارد الحرية الكاملة للتعبير عن وقائع اليومي، أم أن الإكراهات الاجتماعية والثقافية تحتم عليه إخفاء العديد من هذه الوقائع؟ وبالمقابل، هل يتعين على الباحث نقل كل ما يقوله السارد، أم أنه مطالب بـ"غربلة" ما قد يعلق بخطاب هذا الأخير من تكرارات وأخطاء، والقيام بالتالي بتأويل هذا الخطاب وإبراز ما لم يقل (Le non-dit)؟

تقترن هذه الأسئلة بما يدعوه ميشيل فوكو (M. Faucault) بإرادة قول الحقيقة، هذه الإرادة المرتبطة بآلية السلطة. لأن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في الوقت نفسه إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم وموزع من خلال إجراءات عدة تحد من سلطاته ومخاطره. وأكثر هذه الإجراءات بداهة وتداولاً هو المنع. لذلك، فإن كل خطاب هو بمثابة إظهار وإضمار للرغبة، بل إنه الرغبة ذاتها. وقد بين في مؤلفات عديدة، مثل **تاريخ الجنون، والمراقبة والعقاب، وإرادة المعرفة**، كيف تغلغلت السلطة في الأجساد وانتشرت من خلالها في المصانع والثكنات والمدارس والملاجئ والسجون، حيث طورت تقنيات المراقبة لديها وأصبحت توجه الطاقات، بل وتحاصر القوى المتمردة وتنتج المعارف التي تبرر إستراتيجيتها وعلى رأسها العلوم الإنسانية (كلود، 2004: 102 – 108).

من جهة أخرى، أبانت مختلف الأبحاث (فلسفية، لسانية، بيداغوجية تحليل نفسية، أنثروبولوجية) أن إنتاج الخطاب؛ أي إنتاج المعرفة، هو مجال لصراع الذوات من أجل إقرار سلطة معينة (سلطة المعرفة مثلاً)، وإخضاع المتلقي لمقتضياتها. وبذلك، فإن التواصل بين مختلف الأطراف، وكيفما كان نوعه، يخضع لمنطق الرغبة والسلطة.

وفي هذا الإطار، أشار الباحثان مالك الريماوي ووسيم الكردي في مؤلفهما **مخيلة الحكاية** إلى أن "تحقق كل من عملية الرغبة والتواصل وصيرورتها لا تتم إلا في خضم صراع، وضمن هذا الصراع يظهر عاملان: أحدهما يدعى المساعد والآخر يدعي المعيق: الأول يقف إلى جانب الذات، والثاني يعمل دائماً على عرقلة جهودها. وقد يكون، فضلاً عن كونه شخصية، قيمة اجتماعية أو طاقة ذاتية ما داخل الشخصية" (الريماوي والكردي، 2005: 31).

يتضح إذن، أن كل خطاب هو ترجمة للصراعات بين الذوات وبين أنظمة السيطرة. وهو ما ينطبق على خطاب السارد، كخطاب رغبة وسلطة، يستدعي التأويل للوقوف على نظامه ووظائفه ورغباته.

وترجع عملية التأويل إلى كون كل قول يتضمن خاصيتي الإظهار والإضمار؛ بمعنى أن الذات الساردة لا تظهر ما تقصده من كلامها فحسب، بل توحي بقصدها، بشكل مجازي واستعاري. وبذلك،

يواجه المتلقي معنيين (ظاهري وباطني، أو حقيقي ومجازي)، ويتعين عليه إبراز دلالة العبارة عبر ربطها بسياقها. وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه فعل التواصل الإنساني الذي تتحدد من خلاله، كما هو معلوم، العلاقة بين أطراف ثلاثة، وهي : الناقل (المرسل)، والمنقول (الخبر أو الرسالة)، والمنقول إليه (المتلقي أو المرسل إليه). وهي العلاقة التي يتواصل من خلالها الأشخاص بواسطة رموز تحتاج إلى القراءة والتأويل كي يتم فهمها. وهذه العملية تحتاج إلى مجهود فكري، وإلى مقتضيات منهجية لفهم ما قيل، وذلك هو النهج الذي اتبعته الهرمونيتيقا التي وضع أسسها شلايرماخر (Schleiermacher)، وطورتها أعمال دلتي (Dilthey) وفيبر (Weber)، في إطار التمييز بين علوم الطبيعة وعلوم الإنسان، أو بين التفسير والفهم؛ بين المقاربة الموضوعية والمقاربة الذاتية. وعلى هذا الأساس، فإن متلقي سرد الوقائع سيقوم بعمليتين: حيث تتمثل الأولى في تأويل خطاب السارد كشرط أساسي لحصول الفهم، وتتمثل الثانية في دفع السارد إلى اكتشاف حقائقه بنفسه على شكل، ما يدعوه الباحث الإثنولوجي الفرنسي جان بواريي (J. Poirier)، بالتوليد السقراطي: "فالأمر يتعلق بمايوتيقا (توليد) اجتماعية تسمح للذات بأن تكشف عن معاني عباراتها، وبأن تكون شاهدة على جماعتها ومجتمعها وثقافتها" (Poirier & Valladon, 1983: 42).

وتتدرج العمليتان معاً ضمن ما يدعوه هذا الباحث بالمقاربة البيوغرافية لسرد وقائع الحياة اليومية. فما هي طبيعة هذه المقاربة؟

2 المقاربة البيوغرافية لسرد وقائع الحياة اليومية

تستهدف هذه المقاربة التمثلات السوسيو-ثقافية التي يحملها السارد عن مجتمعه، لذلك فهي لا تروم فقط نقل أقواله كتعبير عن مغامرته الفردية داخل المجتمع، بل تسعى أيضاً إلى رسم النماذج الثقافية لجماعته وللصورة التي يحملها عن هذه الجماعة (Poirier, 1979: 533). وبهذا المقتضى، فإن منهجية سرد وقائع الحياة اليومية لا تخضع لأسئلة نمطية كما هو الشأن في تقنية الاستمارة، بل تترك هامشاً للحرية لدى الذوات المستجوبة كي تبلور سردها بنفسها، عبر إصدار الأحكام الشخصية والتعليق على ما جرى، ضمن ما يمكن تسميته بـ "شخصنة الحدث" (personnalisation de l'événement)، التي مفادها أن السارد يصبغ ذاتيته على الأحداث، بحيث يشكل خطابه حول الوقائع السوسيو-تاريخية، "قراءة" لهذه الوقائع من بين قراءات أخرى ممكنة. وهنا تبرز الخاصية المزدوجة لتأويل الأحداث: كتأويل ذاتي لها، وأيضاً كتأويل لخطاب الذات الساردة من طرف المتلقي. ويمكننا نتيجة ذلك اعتبار سرد وقائع الحياة اليومية "وثيقة شخصية تعكس الجانب الذاتي، الفاعل داخل المجتمع" (Poirier, 1979: 207)؛ بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك ونقول إن هذه الحقيقة توجد في صلب الإشكالية الرئيسية للعلوم الاجتماعية برمتها، ونقصد بذلك إشكالية الذاتية والموضوعية التي يمكن تلخيصها ضمن التساؤلات التالية: هل يمكن تناول الظواهر الاجتماعية موضوعياً وبشكل معزول عن سياقاتها التاريخية والسياسية والثقافية؟ ثم ألا تؤدي خصوصية هذه الظواهر إلى اعتماد مناهج خاصة تأخذ بعين الاعتبار جوانبها الذاتية؟

إن سرد وقائع الحياة اليومية، هو -إذن- سرد ذاتي حول الذات، لذلك يتعين على مقاربة هذا السرد أن تهتم بتمثلات السارد، ونوعية خطابه، وتقييمه للأحداث، وهي عمليات مندرجة في إطار ما يدعوه السوسيولوجي الأمريكي إرفين كوفمان (E. Goffman) «بمسرحة الذات (la mise en scene de soi)؛ أي في إطار لعبة التموقعات التي تقوم بها الذات أثناء تفاعلها مع الآخر، حيث تسعى إلى البروز أمامه بمظهر خاص، يكون الهدف من ورائه هو تقديم صورة متميزة عن نفسها، وتبرير مواقفها أحياناً بل والدفاع عن ما يميزها كذات (Goffman, 1973).

لا جدال -إذن- في كون الذاتية حاضرة بشكل قوي ضمن سرد وقائع الحياة اليومية، لكنها تظل مع ذلك مقترنة بما هو اجتماعي، عبر الإحالة عليه باستمرار. فالجانب الاجتماعي حاضر في بناء السرد نفسه الذي تتشكل مادته من التمثلات الاجتماعية؛ أي من المخيال والعمليات المعرفية والبناءات الذهنية ومن الوجدان والمعتقدات . . . الخ. لذلك، فإن الوقائع المعيشة هي في أساسها وقائع اجتماعية، لكنها معروضة بشكل ذاتي؛ وإذا ما استعرنا ألفاظ الفينومينولوجيا، يمكننا القول إن هذه الوقائع لا تتشكل كموضوعات دالة إلا بالإحالة على ذاتية، وعلى أنا متموضعة داخل سياق محدد.

ولفهم هذه الدلالات والمعاني الذاتية للوقائع، يتم اعتماد تقنية تحليل المضمون، فسرد الوقائع اليومية كخطاب أي كنص، هو بمثابة وحدة متضمنة لمعاني يجب استخراجها. لذلك، فإن تحليل مضمون هذا النص/ الخطاب، وكما يقول لورنس باردان (L. Bardin): «يقتضي اكتشاف أنوية المعنى (noyaux de sens) التي تسمح بالتواصل، والتي يمكن لحضورها أو لتكرار ظهورها أن يوضح جانباً من غاية الخطاب" (Bardin, 1977: 105). وعلى الرغم من أن تصنيف هذه الأنوية والتيمات المقترنة بها، يتطلب مقاربة كمية لا يسمح المقام بتحليلها (بخصوص هذه المقاربة يمكن الرجوع إلى مؤلف الباحثين: Ghiglione et & Matalon, 1980)، غير أن فهمها وتأويلها وتقييمها يستدعي مقاربة كيفية هي بمثابة مسعى هرمونيتيقي. وفضلاً عن ذلك، فإن عملية التصنيف الكمي للمعاني وللثيمات تظل محدودة ما لم يتم إغناؤها بتأويلات لأقوال السارد.

وعلى هذا الأساس، فإن تحليل سرد وقائع الحياة اليومية يتموضع داخل مستويين:

1. مستوى جمع المعلومات، حيث يتفاعل خطاب السارد مع أسئلة المتلقي.
2. ومستوى تحليل مضمون الخطاب الذي يتأرجح بين المقاربتين الكمية والكيفية.

ويطرح هذان المستويان إشكالية ابستيمولوجية، تتعلق بذاتية أو موضوعية سرد الوقائع، وتفاعل ما هو اجتماعي بما هو فردي.

لكن، ألا يعني سرد وقائع الحياة اليومية في العمق، تأويلاً وقراءة للواقع الاجتماعي؟ ألا يتضمن إقراراً بخصوصية الشخص (السارد) وبنوعية انخراطه في المعيش الحدثي، أو بإبداعيته لليومي حسب تعبير ميشال دوسيرتو (انظر ترجمتنا لمقالة "دوسيرتو ورمزية اليومي" ضمن ملف هذا العدد).

في الواقع، إن اقتراح المقاربة الأنثروبولوجية لسرد وقائع الحياة اليومية، وثيق الصلة بهذه الإشكالية والتساؤلات؛ لأن استرجاع هذه الوقائع يقتضي تداخل الذات بالموضوع، ولا يمكن لهذا الاسترجاع أن يقتصر على الحميمية الذاتية وحدها، ولا على الاختزالية الاجتماعية وحدها أيضاً. فالوقائع التي تنقلها الذات (الساردة) هي أحداث مشتركة مع باقي أفراد الجماعة. وهذا هو المعنى المقصود من تداخل الذاتي بالاجتماعي في عملية سرد الوقائع.

د. عز الدين الخطابي
عضو اتحاد كتاب المغرب

المراجع

- Cf. Thomas & znaniecki, (1974) *The polish peasant in Europe and America,* 2 Vol, New York, Octagon Books. (reimpression de l'édition de Boston 1918).
- مونو، جان كلود، (2004). **ميشيل فوكو وميكروفيزياء السلطة**، ترجمة: عز الدين الخطابي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- الريماوي، مالك، الكردي، وسيم، (2005). **مخيلة الحكاية في استكشاف القصة وإنتاج المعنى**، رام الله: مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.
- Poirier, J. et al, (1983) *les récits de vie, théorie et pratique,* P.U.F le sociologue, Paris.
- Poirier, Jean,(1979), *Des récits de vie aux éthnobiographies, culture, science et développement,* Mélanges en l'honneur de Charles Morazé, Priva, Paris.
- Poirier, J. et als, les récits de vie, op. cit.
- Goffman, E., (1973), *la mise en scène de la vie quotidienne (2 tomes),*
  1-La présentation de soi, 2) les relations en public, ed. de minuit, Paris, Bardin, Laurence, (1977), *L'analyse du contenu,* P.U.F. Le psychologue Paris.
- Ghiglione, R, &Matalon, B., (1980), *les enquêtes sociologiques, théories et pratiques,* Armand Colin, collection U, Paris.
- مقالة "دوسيرتو ورمزية اليومي"، ضمن ملف هذا العدد.

من ورشة "توظيف مسرح المضطهَدين في السياق التربوي".